

قراءة اخيرة في جدلية ابي تمام الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي

قال ابو تمام :

سأجهد حتى ابلغ الشعر شأوه و ان كان لي طوعا و لست بجاهد

ما معنى الجدلية : الجدل ذو مكانة في المعرفة و الاطلاع ، و هو نوعان :

جدل الفكر و الرياضيات (انساق – ترتيب – معقولة) ، جدل القلب (الحب –
الولع بالصور – التجاوز الى المعاني الكلية – التأمل المحض) .

الجدلية : من خصائص الفكر الانساني فلا بد ان تظهر في طبيعة لغة اصيلة
كالعربية و قد انتبه اللغويون و هو جذر الاضداد في الالفاظ العربية و اشاروا اليها
و سعوا لجمعها و تفسير جدواها .

ذكر السيوطي (قطرب – الانباري – ابن الدهان) القوافي الاضداد .

ما اسباب انتباه ابي تمام الى التضاد و التقابل؟

اسفاره الكثيرة و اتصالاته بشتى المعارف و اطلاعه على الوان العيش المتباينة ،
اطلع على تأمل اللغويين لذا نجد في شعره ثقافة لغوية واسعة يأتي التضاد من
التحرر من اصلين مختلفين (اخفى – كتم – اخفى – اظهر) و قد يأتي لغاية
بلاغية – السليم تفاؤلا بالسلامة (المفازة من الفوز – الصريم لليل و النهار –
الاحمق – للعاقل الصارخ – المغيث – المساء) .

جدل ابي تمام :

في الشعر و طبيعة توليده للأفكار ، انه اكثر الشعراء اطلاعا على اشعار العرب
القدماء و كتابة الحماسة شاهد .

هل ورد الجدل في الشعر الجاهلي ؟

عند ليبيد :

ليس ورائي ان تراخت منيتي لزوم العصا تمنى عليها الاصابع

فالشيء الاتي يكون الانسان في غفلة عنه لا ينتبه له فكأنه خلقه .

الاشارة الالهية في القران :

السفينة التي ركب فيها الخضر و موسى ، و لفظة امد في قوله : ((و امددناهم بمال و بنين)) ، و لفظ أمر المستعمل في غيره : ((نمدهم في طغيانهم يعمهون)) هل يحتمل الكلام اكثر من معنى ؟

نعم ، قال النبي (صل الله عليه و اله) : ((اذا لم تستح فاصنع ما شئت))
أ- اذا لم تفعل فعلا تستحي منه فافعل ما شئت .
ب- اذا لم يكن لك حياء يردعك عن فعل ما تستحي منه فافعل ما شئت .
و قول المتنبي يؤدي الى معنيين مدحا و ذما :

فان نلت ما اقللت فيك فربما شربت بماء يعجز الطير رده

و قوله :

فما لك تعني بالاسنة و القنا و جدك طعان بغير سنان

اشبه بالذم منه بالمدح – لم تبلغ ما بلغته بسعيك و اهتمامك بل غير سعادة و هذا الافضل فيه لان السعادة تنال الخامل و الجاهد و من لا يستحقها .

الجدلية : اوضح المظاهر للمقابلات الفكرية التي هي من خصائص الفكر الجدلي .

مدرسة ابي تمام رد فعل لمدرسة سبقتها هي مدرسة ابي نواس – التي اعتمدت على سهولة الالفاظ و يسرها و قرب المعاني و حدائتها و بساطة البيان و على وصف الحضارة و تجنب موضوعات الجاهلية (الوقوف على الطلل – وصف الناقة و الخيل) و استهزاء بهذه الموضوعات قول ابي نواس :

قل لمن يبكي على ربيع درسي واقفا ما ضر لو كان جلس

عاج الشقي على دار يسائلها و جئت اسأل عن خمارة البلد

كم بين من يشتري خمرا يلذ بها و بين باك على نوي و منتضد

ابو تمام يعتد اللفظ الغريب و العبارة النادرة و ذكر مواطن الاحبة في البادية و الصحراء ، فاللفظ في مدرسة ابي نواس كان رقيقا يراد به ما وضع له و هكذا تبدو معاني الشعر واضحة لا لبس فيها و لا غموض .

عند ابي تمام اصبحت الالفاظ و الكلمات لا تؤدي دلالتها و معانيها بالضبط ، انها لا تستعمل لمعانيها الموضوعية لها بالتدقيق بل لتناسيها و مراعاة نظائرها ، ان الفاظ ابي تمام تبدو فيها العنجهية البدوية و ازاء المعنى الغامض الذي يتطلب امعان النظر لتظفر بالمراد – التعبير القائم على الاستعارة و المجاز و الجناس و الكناية و مختلف المحسنات :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد و اللعب

اختلف المطلع عنده عما الفناه في تعبير الشعراء السيف رمز القوة و الحرب و
الكتب رمز التنجيم و الحد الثاني معناه الفصل بين شيئين

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك و الريب

يؤكد البيت الاول بتشكيل مزخرف متألق خطابي جاء بألفاظه الطباق بين البيض و
السود و تجنيس القلب في الصحائف

و العلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

يؤكد الفكرة نفسها ، يخدع العلم في الحرب لا ما استدلتتم عليه بالنجوم و لكنه
يختار للدلالة على النجوم لفظ الشهب التي هي اخص منها و يستعير اللفظ نفسه
لاسنة الرماح زخرفا و تزويقا و مجانسة .

قول ابي تمام على التلميح و الاشارة الى ايام العرب و حوادث التاريخ و القصص
المأثورة و ضرب الامثال :

ان كان بين صروف الدهر من رحم موصولة او ذمام غير منقضب

فبين ايامك اللائي نصرت بها و بين ايام بدر اقرب النسب

الملاحظ ايضا انه يعتمد التضاد او تغاير الحدود :

السيف يقابل الكتب ، الجد نقيض اللعب ، البياض ضده السواد ، الشك يبده الجلاء ،
اسنة الرمام تقابل (سناء النجوم) ، التضاد بين المتزوج و الاعزب

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك علي بان باهل و لم تغرب على غرب

اشارة الى الربوع و المواطن البالية فربح قومه اصبح عامرا حين طاف به ذو
الرمة و رغم ذلك كان اقل دمارا من دمار عمورية

ما ربع ميث معمورا يطيف به غيلان ابهى ربا من ربعها الخرب

و قوله في المقارنة بين الحسن في العواقب

و حسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته من سوء منقلب

كيف جدد ابو تمام في الشعر العربي ؟

تناول بيئة الشعر و تركيبه او عموده ، تناول الاغراض الفنية القديمة فدقق بالطلول
و بكاهها و شبب و مدح و رعى و استعمل الكثير من الالفاظ الغريبة و بعض
الكلمات القليلة الشيوخ .

ان الاتجاه الديالكتيكي الذي اتجه اليه ابو تمام استطاع ان يولد كثيرا من المعاني (كم ترك الاول للاخر) قال ابو العلاء في رسالة الغفران : (ابو تمام صاحب طريقة مبتدعة و معان كاللؤلؤ متتبعة يستخرجها من غامض بحار) .

لقد التزم ابو تمام النهج هذا في جميع شعره :

و طول مقام المرء في الحي مخلق **لديباجتيه فاغترب تتجدد**

فاني رأيت الشمس زيدت محبة **الى الناس ان ليست عليهم بسرمد**

و يصف الربيع و يجلب انتباهه ختام الشتاء و مقدمة الصيف فهو يعرفه بالتضاد ((ان الشتاء لما احتوى من امطار هيا ثمرات الصيف فالشتاء محمود رغم عداد في برده ، اما الربيع فهو صحو في مطر و مطر في صحو)) .

مطر يذيب الصحو فيه و بعده **صحو يكاد من الغضارة يمطر**

يرى ابو تمام ان الحركة هي الاصل في حسن الطبيعة و جمال الارض على خلاف الاشياء المصنوعة الثابتة ، كان ابو تمام – ابا للجدل المريث المستند الى التغيير و الى الحركة و كان مذهبه مبكرا شمل الفلسفة و ان الشعر العربي لم يخل من المقابلات المتضادة و لكن الفرق كبير بين ابرازها حين تشف عن حركة طبيعية دون ان يتجاوز التعبير هذه الحركة و بين اعتماد التضاد و تصالب الافكار و تقاطعها في اغلب الاحيان ، فالشاعر الجاهلي الحصين بن حمام يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم اجد **لنفسى حياة مثل ان اتقدما**

رسم حركة نفسية بعبارات رقيقة متقنة و بقي كلاسيكيا لانه كان وثيقا بعاطفته لم يصورها بعنف و لا باستعارات متعمدة كما يصنع ابو تمام .

شواهد من جدلية ابي تمام :

١- في مدح المعتصم :

شرست بل لنت بل قانيت ذلك بذا **فانت لا شك فيك السهل و الجبل**

في البيت مراحل تكلف في اثبات و نفي النفي .

٢- في الوصف للطلول :

من سجايا الطلول الا تجيبا **فصواب من مقلتي ان تصوبا**

فاللفظ عنده يحتمل احيانا اكثر من معناه المخصص له .

٣- وصف الجمل :

رعته الفيافي بعدما كان حقة رعاها و ماء الروض ينهل ساكبه

الجمال نشأ و سمن من رعية الفيافي ثم نحل و ضعف من جوبه تلك القفار فكأنما رعته بعدما رعي بنتها .

٤- وصف الشيب :

تستشير الهموم ما اكن منها صورا و هي تستشير الهموما

يصف شعة الشيب في المفارق ، الهموم تستشيرها و هي في المقابل تستشير الهموم .

ان شعره قائم على صراع الحدود في ذلك العصر العباسي القائم على التمايز بين الطبقات و الفئات مع وجود الطبقات العرقية التي تتنافس ظاهرا و باطنا مع الحكم كالفرس و الترك .

لا بد و ان يظهر في العصر المعقد تلوح صورته نضارة متشابكة مع فن صناع و ادرك ابو تمام رسالة الشعر في ذلك المجتمع المعقد و فهم غايته السامية فالشعر ليس مجرد كفن كملت عناصره و اتقنت اداته و بلغ الاول في الابداع و الصناعة انما هو وسيلة للقفز على المعاني و حث على تحقيق القيم الرفيعة .

و لولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من اين توتى المكارم

فالرئيس لا ترقيه الرئاسة لانه مهياً للمعالي في الامور فلم ترتفع شخصيته بهذا النص الجديد كما يرتفع قليل الواهب

اعط الرئاسة من يدك فلم تزل من قبل ان تدعي الرئيس رئيسا

لقد سما بمدوحه على ان يكون من هؤلاء اذ كانت مزاياه النفسية اصلية لا جدلية بالإشارة و النصب .

من اكتشف جدلية ابي تمام ؟

١- ابو الفرج الاصفهاني : ((شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني

غواص على ما يستصعب منها و يعسر متناوله على غيره)) .

٢- الصولي : ((رأس في الشعر مبتدئ المذهب - سلكه كل محسن بعده)) .

٣- ابو العلاء : ((انما ينكر عليه المستعار و قد جاءت الرماية في اشعار كثير

من المتقدمين الا انها لا تجتمع كاجتماعها في ما نظمه حبيب)) .

(الفن البراق)

ان شعره قائم على الصناعة و التركيب و الزخرفة اللفظية و المعنوية كأنه هندسة فنية متشابكة العناصر غنية الاوصاف (الفن البراق) .

تأثر البحتري و المتنبي بفنه و تقبله بادئ بدء ، لقد فاقه البحتري في موسيقى اللفظ و غنائيته ذات الجرس الحلو ، و فاقه المتنبي في قوة بيانه و روعته و ايجازه في اعجازه ، و كل من جاء بعدهم تأثر بابي تمام .

نماذج من بديعياته :

١- يطابق بين اسماء الاشارة :

مها الوحش الا ان هاتا اوانس قفا الخط الا ان تلك ذوابل

٢- المطابقة في الالوان و الكناية عن القتل بالدم و الكناية عن الجنة بلون اخضر :

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى لها الليل الا وهي من سندس خضر

٣- المقابلة على الترتيب قوله تعالى : ((فليضحكوا قليلا و ليبكوا كثيرا)) .

و يقول المتنبي بخمسة اشياء :

ازورهم و سواد الليل يشفع لي و انثي و بياض الصبح يغري بي

و قول عنتره يقابل بين ستة اشياء :

على رأس عبد تاج عز يزينه و في رجل حر قيد ذل يشينه